الفصل الثانى

الشـــعور

إن الحالات النفسية التى تجرى فى أنفسنا نشعر بوجودها ، وهـذه الحالات لا مكان لها ، وهى موجودة فى الشعور . ولبيان فكرة الشعور يكفى أن تنظر إلى شخص نائم ، فهو فى هذه الحالة لا يشعر بشىء ، حتى إذا ما أخذ يصحو ، ابتدأ عنده الشعور بالأشياء المحيطة به ، وبالرغبات التى يطلبها ، فهو يرى النور والحائط والنافذة والمنضدة والكرسى ، وينظر إلى الساعة ويدرك مقدارها ، ويسمع الأصوات التى تصدر من الشارع ، ويحس بدفء الفراش ، وبرودة الهواء ، ويشعر بالحاجة إلى النهوض ، ليرتب نفسه قبل الذهاب إلى عمله فى الساعة الثامنة ، ثم ينظر إلى الساعة فيخشى التأخر عن ميعاد العمل ، ويسرع فى ارتداء ملابسه ، ويخرج من منزله مسرعا .

هـذه الحالات المختلفة التى يحتويها الشعور تسمى « الظواهر النفسية » وليست الظواهر النفسية بدرجة واحدة من الشعور ، فهناك ظواهر يشعر الإنسان بها شـعوراً تاما واضحا ، وأخرى تكون أقل وضوحا من الأولى . فإذا ذهبت لتتناول كتابا من فوق المنضدة ، فإن رؤية الكتاب وتمييز اسمه ومكانه بالنسبة إلى المنضدة ، يكون كل ذلك جليا فى الشعور ، ولكنك فى نفس الوقت الذى ترى فيه الكتاب ، يقع بصرك على أشياء أخرى كثيرة تحيط به ، وترى يدك وهى ممدودة لأخذه ، ويصل إلى سمعك أصوات مختلفة ، هذه الظواهر كلها موجودة

فى ذهنك ولـكنها غامضة ، ليست فى درجة الوضوح التى شعرت بهـا حين تناولت الـكتاب . فهى موجودة فيما نسميه « هامش الشعور [١] » ، فالشعور يأتى فى الدرجة الأولى ، ويتلوه هامش الشعور . وليس هناك فاصل دقيق وحاجز كبير يقف بين الشعور وهامشه ، بل هذه الطبقات المختلفة من الشعور ، تتراوح من الوضوح إلى الغموض ، فى اتصال مستمر ، مَثلها مَثل الشمس عند المغيب ، لاينقطع نورها عن الأرض فجأة ثم يحل الظلام ، بل يطغى الليل على النهار بالتدريج

والظاهرة النفسية ، التى هى لحظة من حياة الشعور ، تختلف عن الظواهر الطبيعية من ثلاث نواح :

(١) إن الظاهرة الطبيعية مثل غليان الماء ، وتمدد الحديد بواسطة الحرارة هى حقائق موضوعية ، بمعنى أن الإنسان ، يراها من الخارج ، ويستطيع جميع الناس أن يروها بنفس الحالة ؛ أما الظاهرة النفسية فلا يدركها إلا صاحبها ، لأنه هو الذى يشعر بها ، وأكبر دليل على هـذا الأعمى الذى يولد كذلك فإنه لايصل مطلقاً إلى تمييز الألوان . ومن أعجب ما لوحظ فى هذا الصدد أن سـيدة أمريكية تدعى « لورابردجمان » ولدت صماء بكماء ، سـنة ١٨٢٩ ، ثم فقدت بصرها وهى صـغيرة ، وأخذ العلماء يعلمونها عن طريق اللمس ، قالت : فى أحد الأيام : « إنى أود لو أن لى عينين ورديتين وشعراً أزرق »[٢] ويقول الصبى الأعمى لأمه :

يا أم ما شكل السماء وما الضياء وما القمر .

(٢) لاتجرى الظواهر النفسـية فى المكان ، فهى كالفرح والألم لا موضع

---

(١) Subconscience.

(٢) Manuel de Philosophie. Cuvillier. page 31.

لها . و إذا كنا نضطر إلى استعمال ألفاظ تدل على المكان كأن نقول إن الفرح موجود فى النفس ، فلفظة « فى » التى تدل على المكان ، إن هى إلا ضرورة لغوية .

(٣) كذلك لايمكن قياس الظواهر النفسية على نهج الظواهر الطبيعية . وقد رأينا أن محاولات العالمين (فبير) و (فشنر) فشلت فى قياس الإحساس وهو أبسط الظواهر النفسية وأقربها إلى الظواهر الطبيعية .

مجرى الشعور :

إن المظاهر النفسية تجرى فى الشعور دون انقطاع وتتغير تغيراً مستمراً وتتصل بصاحبها الذى يشعر بها . ونستطيع أن نشبه الظواهر النفسية التى تجرى فى الشعور بماء النهر الذى يتدفق فى مجراه ، ولا تنقطع حياة الشعور إلا فى حالات النوم أو الإغماء أو التخدير ، أما فى حالة الصحو فإن الظواهر لا تنفك عن الوجود فى الذهن . و إذا شئنا أن نتناول ظاهرة واحدة لنحللها ، ونضعها تحت منظار عقولنا لندرسها ، فإنه يجب علينا أن نقتطعها اقتطاعاً من الحياة النفسية ، وأن نفصلها على حدة من مجرى الشعور لتتبين لنا فى جلاء ووضوح ، ولكن الحقيقة أن الظواهر يتصل بعضها ببعض دون انقطاع .

فالظاهرة النفسية هى لحظة من حياة الشعور ، نركز فيها انتباهنا ، ونفصلها عن مجرى الشعور لأنها تهمنا أهمية خاصة .

تحليل الظواهر النفسية :

إذا أردنا أن ندرس ظاهرة نفسية ، مثل تحية صديق ، يجب أن نلقى فى بالنا أن هذه الظاهرة لم تحدث بمفردها ، بل فى نفس اللحظة التى سلمت فيها على صديقك قد رأيت أشياء أخرى عدة مثل العربات التى تجرى فى الشارع ،

والأشخاص الذين يمرون بجانبك ، ووصل إلى ذهنك أصوات أخرى مختلفة كأبواق السيارات ، وضجيج المارّة ، وأشياء أخرى كثيرة كلها حصلت فى نفس اللحظة . فأنت إذ تدرس هذه الظاهرة وهى تحية صديقك فإنك قد انتزعتها من بين ما سبقها وما تلاها وما حدث معها لتسهيل البحث . فإذا اقتطعنا ظاهرة من هذه الظواهر على حدة لدراستها مثل ما يأتى :

قطفت وردة ، طلبت كتاباً من صديقك ، خرجت من منزلك ، تناولت الطعام ، ذهبت إلى دار الخيالة ، فإننا نجد عند البحث أن كل ظاهرة نفسية لها ثلاثة وجوه ، إدراك ، ووجدان ، ونزوع .

يمر الإنسان بشحاذ مسكين فيعطيه قرشاً . فأول شىء حدث هو إدراك أن الشخص الموجود مسكين يستحق المعونة ، ويصل إلينا هذا الإدراك أو هذه المعرفة عن طريق البصر ، فنعرفه بشكله ولونه وملابسه ومميزاته . يعقب ذلك أن يشعر الإنسان بألم من هذا المنظر ، وهذا يسمى الوجدان ، فيؤدى كل ذلك أخيراً إلى أن ينزع الإنسان إلى أن يضع يده فى جيبه ليعطى الشحاذ قرشاً ، وهذا ما يسمى بالنزوع .

فكل ظاهرة نفسية يحصل فيها هذه المظاهر الثلاثة ، ومن الخطأ القول أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام ، لأن الحدث واحد وأجزاؤه متصلة لا انقسام فيها ، وكل ما فى الأمر أننا ننظر إليه من ثلاثة أوجه .

الإدراك : إننا حين نتكلم عن الإدراك فيما يختص بالتقسيم الثلاثى السابق نعنى بذلك أى نوع من المعرفة ، فهناك معرفة كلما كان هناك إدراك لأى شىء من الأشياء الخارجية ، مادية حسية كانت أم معنوية مجردة ، كالصديق أو الشجرة أو العربة أو الكرسى ، أو إدراك الجمال فى صورة ، والنكتة فى حديث وأشباه هذه

الأشـياء المعنوية . وهناك معرفة إذا كان هناك « تذكر » لأى حادثة مرت عليك فى المـاضى ، مثل ذكرك لاسم صديق لك . وهناك معرفة إذا تصورت « صورة » أو « خيالا » ، سواء أمرّت عليك صورة الشىء الذى تتصوره ، مثل صورة المدرسـة التى كنت فيها ، أم ابتدعت هـذا الخيال ، مثل تخيلك القصر الذى تحلم أن تبنيه لنفسك فى المستقبل . فى جميع هـذه الحالات كل ما ندركه — سواء أكان شيئاً خارجياً مادياً أو معنوياً ، أم كان شيئاً باطنياً — كل هذا هو موضوع الإدراك . بينما الشخص الذى وقعت له هذه الأشياء هو الذى يدرك هذا الموضوع .

الوجدان : الواقع أن تعريف الوجدان وشرح ماهيته أمر عسـير ، فإذا ذهبت إلى حديقة منسقة ، وأحسست لمنظرها السرور ، هل تستطيع أن تقول ما هو « السرور » ؟ هو حال نفسـية نعرفها لأننا جربناها ليس إلا . ثم إنه من ناحية أخرى ، تعترضنا صعوبة أخرى عنـد الكلام على الوجدان ، وهى الفقر فى المصطلحات من هذه الناحية ، سواء أكان ذلك فى اللغة العربية أو الأجنبية ؛ فنحن نقول « أحسست بفرح » وهـذا يدخل فى روعنا معنى الإحساس ، وهو شىء آخر غير الوجدان ، أو نقول « شعرت بغضب » وكلمة الشعور أطلقناها على شىء آخر فى علم النفس ، وهو كل ما يمر بنـا من الحالات النفسية ونشعر بها ، ونحن نذكر هذه الفوارق لننتبه إليها فيما بعد .

ويطلق الوجدان إما على تأثر الإنسان بارتياح أو عدم ارتياح ، أو ما يسمونه تجاوزا لذّةً وألما ، وإما على انفعال الشخص بانفعال خاص ، كالغضب أو الخوف أو الدهشة أو القلق .

فاللذة والألم ، حالتان نفسيتان عامتان ، أما الانفعال فخاص .

فإذا شربت فى الصيف كوباً من الماء المثلوج شعرت بعده بلذة أو ارتياح ، وتختلف اللذة والألم من حيث الحدة والفتور ، وعلى العموم فإنها حالات عامة غير محدودة .

وإذا قابلت عرضاً صديقاً تود مقابلته ، فوجدانك نحوه هو انفعال الدهش ، وهو انفعال محدود تستطيع وصفه ، وهذا بجانب شعورك بالارتياح من هذه المقابلة .

وسيأتى تفصيل الفرق بين أنواع الحالات الوجدانية فى فصل خاص .

النزوع : هو الدافع النفسانى الذى يدفعك إلى القيام بعمل من الأعمال ، فإذا رأيت وردة جميلة فى حديقة فإنه يحصل عندك إدراك أن هذه وردة ، ثم تشعر بوجدان خاص هو الارتياح والسرور أو اللذة لرؤيتها ، فتنزع ، أى يحصل عندك دافع لقطفها ، فتقطفها .

وليس من الضرورى أن يكون الدافع النزوعى متحققا فى النهاية فى صورة عمل إيجابى كرؤيتك الوردة وقطفها ، أو رؤيتك قميصا جميلا عند بائع القمصان وشرائه ، ولكن قد يكون الدافع متحققا فى صورة سلبية ، مثال ذلك : إذا رأيت قطعة طباشير ، ووجدت أن يدك ستتسخ منها ، فلا تحاول الإمساك بها ، أو إذا كنت فى الطريق ورأيت ناحية من الشارع مبللة قذرة ، فتتجنبها ولا تقدم على المشى فيها ، فالنزوع قد يكون لتحقيق عمل والقيام به ، أو الصدوف عنه .

ثم إنه ليس من الضرورى أن يتحقق النزوع فى صورة عمل أوحركة ، ولكننا — كما قلنا — نقصد بالنزوع الدافع النفسانى الذى يدفعك إلى عمل من الأعمال ، ولا يهمنا إذا كان هذا العمل يتم فى صورة حركة أم لا .

فمثلا إذا وقفت خارج سور حديقة ، ورأيت خلاله وردة ، فحصل عندك إدراك ، ثم وجدان ، فلا شك أنك تنزع لقطفها أو الاستيلاء عليها ، ولكن

السور الحديدى يمنعك من ذلك ، أو أن الرغبة غير شديدة ، ولـكن هذا لايدل على عدم وجود النزوع فى مثل هـذه الظاهرة . كذلك الراقد فى سريره تعبا ، يريد القيام ويهم به ، ولـكنه لتعبه وتثاقله لا ينفذ ذلك ، فهذا لايدل على أنه خالٍ من النزوع ، بل هو عنده دافع إلى القيام ، ثم لو قام بالفعل لعددنا هـذا بالفعل منه حركة ، ولـكنه لم يقم ، إذن لم تتم الحركة . والواقع أن الحركة إذا كانت لم تتم ماديا فى الخارج فهى قد تمت فى ثنايا النفس ، وهذا ما يهمنا بحثه .

والخلاصة مما تقـدم ، هو أن كل ظاهرة نفسية نحللها إلى ثلاثة أقسام : إدراك أو معرفة ، ثم وجدان ، ثم نزوع ؛ ويجب أن تعلم أن هذا التقسيم المذكور هو تقسيم صناعى ، فليس هناك إدراك ووجدان ونزوع مفصلة ، ولـكن كل ذلك يحصل فى لحظة واحدة ، يختلط فيها الكل ، وينساب الإدراك والوجدان والنزوع بعضها فى بعض ؛ فنحن ننظر إلى الظاهرة النفسية الواحدة من هذه الوجوه الثلاثة التى ذكرناها ، لفائدة البحث ، ولتسهيل درس الحياة النفسية .